(٥)

صلاح الدين الأيوبي[١]

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

في تاريخنا مناطق مضيئة وأخرى مظلمة :

تحدثنا في الجمعة الماضية عن أحد قادة التحرير الإسلامي ، قادة الجهاد في سبيل الله ، عن البطل الإسلامي : الملك العادل ، المجاهد الزاهد ، الشجاع الصالح ، العالم المربي ، عن نور الدين محمود ، الذي كان يلقب بالشهيد ؛ وإن لم يستشهد ، لرغبته في الشهادة في سبيل الله .

واليوم أيها الإخوة نتحدث عن قائد آخر ؛ من قادة تحرير الأرض المقدسة ، هو أكثر شهرة من نور الدين محمود ، وإن كان تلميذاً في مدرسة نور الدين محمود ، هذا البطل هو : صلاح الدين الأيوبي ، وهو رجل كردي ، ونور الدين محمود رجل تركي ، أي أن كليهما لم يكن عربياً ، إنما عربهما الإسلام[٢] ، ونفخ فيهما الإسلام من روحه ، وجعل كلاً منهما بطلاً من أبطال التاريخ الإسلامي .

---

(١) ألقيت هذه الخطبة بمسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في يوم الجمعة ١٥ من ربيع الثاني ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٦ يوليو ٢٠٠١م .

(٢) جاء في الأثر : « إن العربية اللسان ، ألا إن العربية اللسان» رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠٧/٢١) عن معاذ بن جبل ، وقال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم : هذا الحديث ضعيف وكأنه مركب على مالك ، لكن معناه ليس ببعيد ، بل هو صحيح من بعض الوجوه . ص١٦٩.

OBEIKAN.COM

ما أحوجنا أيها الإخوة إلى أن نتعرف على تاريخنا ، إلى أن نستكشف هذا التراث ، وأن نزيح التراب الذي غطّى هذا التاريخ ، فأصبح الكثيرُ منّا يجهلون هذا التاريخ ، ويجهلون أبطاله ، هناك مناطق في تاريخنا مظلمة . ينبغي ألا ننكر هذا . وهناك مناطق مضيئة .

من المناطق المظلمة : حينما أقبل الفرنجة ، أو الصليبيون من بلاد الغرب والمسلمون في غفلة ، والمسلمون في تفرق وتناحر ، وأمراؤهم خانوا أنفسهم ، وأمتهم ودينهم ، هذه محطات مظلمة في تاريخنا ، ولكن الظلام لا يستمر أبداً .

هذا الإسلام قادر على أن يهيئ من أبنائه من يجعل الظلام نوراً ، ومن الضعف قوة ، يجعل بعد الليل فجراً . طبيعة الحياة ، وطبيعة سنن الله في الكون : أن مع العسر يسرا ، وأن بعد الليل فجرا ، وأن أحلك ساعات الليل ظلاماً وسواداً : هي السويعات التي تسبق الفجر ، أشد ما تكون حُلْكة وظلاماً هي هذه الساعات ، وفي هذه الحالة يهيئ الله رجالاً يصنعهم على عينه ، ويربيهم لمهمة ، ويعدهم لرسالة ، كان من هؤلاء : نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي . وكل منهما تمثل حياته وسيرته وجهاده منطقة مضيئة في تاريخ الأمة الإسلامية .

شبلٌ ناشئٌ في عرين أسدٍ مقاتلٍ :

نشأ صلاح الدين في مدرسة نور الدين ، كان أبوه نجم الدين أيوب من رجال نور الدين ، من رجال الجهاد ، وكان عمه أسد الدين شيركوه من رجال الجهاد عند نور الدين ، ونشأ يوسف صلاح الدين ، نشأ في هذا المناخ الجهادي ، وأُشرب هذه الروح ، أُشْرِبها من أبيه وعمه ، وأُشْرِبها من نور الدين محمود ، تعلم من نور الدين محمود حُسن القيادة ، وحُسن الإدارة ، والعدل في الناس ، وحب الخير ، وإقامة الحق ، والتعصب للحق .

تعلم في هذه المدرسة ؛ فلما أتيحت له الفرصة حينما ذهب مع عمه أسد الدين شيركوه في حملة إلى مصر ، وكانت مصر في ذلك الوقت يحكمها العبيديون الذين يسمون في التاريخ بالفاطميين ، والمحققون من العلماء[1] يقولون : إنهم لم يكونوا فاطميين ، ولم يكونوا أشرافاً ، وليس لهم صلة بنسب علي ، ولا بفاطمة ، ولا بالحسن ، ولا بالحسين ، رضي الله عن الجميع ، ولكن ذهب رئيسهم إلى بلاد المغرب ، أماكن بعيدة وادعى أنه شريف ، وأنه حسيني ، وأنه منسب ، وراجت مقولته عند الناس ، حتى صار له أتباع وأنصار .

واستطاع أن يقيم له دولة امتدت من بلاد المغرب إلى مصر ، وإلى بلاد الشام أحياناً ، وظلت أكثر من مائتي وثمانين عاماً تحكم هذه البلاد ، وللأسف حينما جاء الصليبيون تحالف هؤلاء مع الصليبيين ، وكانوا على المذهب الإسماعيلي[2] ، لم يكونوا كالشيعة الجعفرية[3] ، كالذين نعرفهم في العراق ، أو في إيران ، أو في لبنان ؛ بل كانوا على المذهب الإسماعيلي الباطني ، ونحن نعلم ما فعله الحاكم وغيره ، وكانوا في أيام دولتهم يحاربون السنة ، ورجال السنة ، ورجال الحديث ، وعلماء المسلمين ، ويؤيدون كل من سبّ الصحابة ، حتى إنه كان عندهم شعار يقول في مصر : من لعن وسبّ فله دينار وإرْدبّ . أيْ من لعن الصحابة وسبّهم يأخذ ديناراً من الذهب ، وإردباً من القمح ، حتى

---

(١) راجع : تاريخ الخلفاء للسيوطي (١٢/١) والبداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٢٣٢) .

(٢) الإسماعيلية : فرقة باطنية ، تنتسب إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق ، ظاهرها التشيع لآل البيت ، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام ، تشعبت فرقها ، وامتدت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر ، مالت إلى الغلو الشديد ، لدرجة أن الاثنى عشرية يكفرون أتباعها. انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (ج١/ص٣٨٦) .

(٣) الجعفرية : ينتسبون إلى جعفر بن محمد ، المعروف بالإمام الصادق ، لأن أكثر فقه المذهب مأخوذ عنه. ويطلق عليهم : الشيعة الإمامية ، والاثنا عشرية ، وهم الذين زعموا أن عليا هو الأحق في وراثة الخلافة ، دون الشيخين وعثمان رضي الله عنهم أجمعين. ولهم معتقدات معروفة خالفوا بها أهل السنة . انظر : المرجع السابق ، ج١، ص ٥٥ .

اضطر كثير من علماء السنة أن يهجروا مصر إلى بلاد أخرى ، فراراً من هذه البدع التي أطلت برؤوسها وأصبحت شائعة ، ولا يستطيع أحد أن يردها أو يطفئ فتنتها .

في هذا الجو جاء صلاح الدين إلى مصر ، ومكّن الله له حتى زال سلطان الفاطميين تماماً أو العبيديين هؤلاء تماما . وكان آخرهم ملكاً يُسمى : العاضد ، كما قال ابن كثير : العاضد معناه القاطع ، ومنه قول النبي ﷺ في خصائص مكة :« لا يعضد شجرها[1] » أي لا يقطع شجرها ، فقطع الله به دولتهم ، وانتهت إلى الأبد[2].

صلاح الدين يعيد الناس إلى صراط الحق :

جاء صلاح الدين وأحيا السنة بعد أن كادت تموت ، وأقام معالمها ، وأعاد لعلم السنة وعلماء السنة الحياة ، وأصبحت السنة تجري في شرايين مصر من جديد ، وفي كل أنحاء هذه البلاد .

بدأ صلاح الدين يُعيد الناس إلى صراط الحق ، ينفخ فيهم من روح الإيمان ، ويهيئ الصناع لصناعة السلاح ، فلا بد للأمة حينما تريد أن تلاقي عدوها من أمرين :

---

(١) جزء من حديث أبي هريرة ، وفيه : أن خزاعة قتلوا رجلا من بني ليث ـ عام فتح مكة ـ بقتيل منهم قتلوه فأخبر بذلك النبي ﷺ فركب راحلته فخطب فقال :« إن الله حبس عن مكة القتل أو الفيل ـ شك أبو عبد الله ـ وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين ، ألا إنها لم تحل لأحد قبلي ، ولم تحل لأحد بعدي ، ألا وإنها حلت لي ساعة من نهار ، ألا وإنها ساعتي هذه حرام ؛ لا يختلى شوكها ، ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظرين ، إما أن يعقل وإما أن يقاد أهل القتيل..» رواه البخاري في العلم (١١٢) ومسلم في الحج (١٣٥٥) وأحمد في المسند (٧٢٤٢) والنسائي في الكبرى في العلم (٥٨٥٥).

(٢) انظر : البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٤/١٢).

OBEIKAN.COM

- أمر مادي .
- وأمر روحي .

لا بد من هذين العنصرين أن يكتملا معا .

لا بد من العنصر المادي ؛ أن تعد لملاقاة أعدائك ما تستطيع من قوة ، وهذا ما أمر الله تعالى به ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:٦٠)، ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (النساء:١٠٢)، ومن فضل الله تعالى أنه لم يأمر المؤمنين أن يعدوا لأعدائهم مثل ما عندهم من قوة ، فقد يكون ذلك في غير مقدورهم ، إنما أُمروا أن يُعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ، كل ما في استطاعتهم عليهم أن يبذلوه ، ليعدوا لهم العدة ، وقد قال النبي ﷺ « إن الله تعالى يثيب في السهم الواحد ثلاثة ، صانعه يحتسب في صنعته الخير ، ومنبله (أي الذي يضع السهم في مكان الرمي) ، والرامي به[1] » هؤلاء الثلاثة يشتركون في الأجر .

عاشق للجهاد :

أعدّ صلاحُ الدين رجاله ، وهيّأ الجو العام للجهاد في سبيل الله ، وكان الرجل مشغوفاً بالجهاد ، من أراد من الناس أن يتقرب إليه وأن يتحدث له ، حدّثه عن الجهاد ، فإذا حدثه عن الجهاد انشرح صدره ، وانفرجت أساريره ، وذهب عنه الهمّ والتعب والمعاناة ، فكان يعشق الجهاد عشقاً ، هكذا كان صلاح الدين .

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٧٣٠٠) عن عقبة بن عامر ، وقال مخرِّجوه : حديث حسن بمجموع طرقه وشواهده ، وهذا إسناد ضعيف لجهالة خالد بن زيد ، وأبو داود (٢٥١٣) والترمذي (١٦٣٧) وقال : حسن صحيح ، والنسائي (٣١٤٦) ورواه ابن ماجه (٢٨١١) والحاكم (١٠٤/٢)، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، كلهم في الجهاد .

صلاح الدين (العابد) :

وكان صلاح الدين رجلاً مصلياً لله ، لم يدع الصلاة في جماعة عدة سنين ، كان لا يصلي إلا في جماعة ، حتى إنه إذا أصابه مرض أو إعياء يطلب الإمام في خيمته التي ينزل بها ، أو في بيته الذي يسكن فيه ؛ ليصلي به إماماً وهو مريض ، حتى لا يدع الجماعة .

صلاح الدين (العادل) :

وكان رجلاً عادلاً يقيم مجلساً للنظر في مظالم الخلق ، وفي إنصاف المظلومين ؛ كل يوم اثنين ويوم خميس من كل أسبوع ، ويجتمع حوله القضاة والعلماء والصالحون ، ويأتي الناس من كل حدب وصوب ، الكبير والصغير ، والغني والفقير ، والرجل والمرأة ، كل من عنده مظلمة يأتي ليشكو إليه مظلمته ، فيرفع عنه الظلم ، ويُعيد إليه الحق ، ولو كان عند أقرب الناس إليه ، أو آثر الناس لديه ، أو أعز الناس عليه ، يرغمه على أن يعطي الحق لأهله .

عفته وزهده :

وكان رجلاً عفيفاً عن المال الحرام ، حتى إنه حينما توفي نظروا في خزانته فلم يجدوا فيها إلا سبعة وأربعين درهماً من الفضة ، وقطعة ذهبية واحدة ، وجدوها في خزانة هذا الرجل ؛ الذي فتح الفتوح ، وغنم الغنائم من الصليبيين في بلاد شتّى ، فتح نحو مائة مدينة من المدن ، ولا شك أنه غنم فيها الكثير وغنم منها الكثير ، ولكنه أنفق ذلك كله في الجهاد في سبيل الله ، وفي تجهيز الجيوش والجنود ، فحينما مات لم يجدوا في خزانته إلا هذا المبلغ الضئيل .

حلمه :

وكان هذا الرجل رجلاً حليماً ، لا يغضب إذا أُسيء إليه ، وكم من مرة تناوله بعض الناس بما يغضب ، أو ربما وقع عليه شيء يحسب الناس أنه سيطير من الغضب ويفزع ، ولكنه كان حليماً متأسياً برسول الله ﷺ .

OBEIKAN.COM

شجاعته :

وكان رجلاً شجاعاً لا يهاب الموت ، لا يخشى أن يموت ؛ بل إنه في وقت من الأوقات ركب البحر ، وكان كاتبه العماد الأصفهاني يخاف من البحر ، ولكنه وجد هذا القائد لا يبالي بالبحر وقد هاج ، فحدثه بما في نفسه أنه خاف ، فكيف لا تخاف أنت؟ فقال له : ما هي أشرف الميتات؟ قال : أشرف الميتات الموت في سبيل الله ! قال : فهذه هي غايتي ، غايتي أن أموت أشرف الميتات ، لا أموت على فراشي ، أحسن ما أموت عليه : أن أموت في سبيل الله ، أن تصيبني ضربة بسيف ، أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح ، فأقتل في سبيل الله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران:١٦٩) .

كان يلاقي جيوش الفرنجة أو الصليبيين وهم بعشرات الألوف ، ولكنه لم يكن يبالي بهذه الكثرة ، مؤمناً بقول الله تعالى ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٤٩).

سماحته :

كان رجلاً سمحاً ، كريم الخلق ؛ في معركته الفاصلة مع الصليبيين ، معركة حطين ، هذه المعركة كان الصليبيون أكثر من ستين ألفاً ، وكان جيش صلاح الدين اثني عشر ألفا من الجنود المجندين ، غير بعض آلاف من المتطوعة ، كان جيش صلاح الدين لا يساوي ربع جيش الصليبيين ، ولكنه توكل على الله عز وجل .

وحينما أراد أن يلقاهم عند هذه البلدة الصغيرة أو القرية الصغيرة التي نعرف اسمها : حطين ، اجتمع الصليبيون وتصالحوا فيما بينهم ، زال الخلاف بينهم ، كان بعضهم مختلفين مع بعض ، ولكن عندما يجدون العدو القوي ينسون الخلافات ، وهذا هو شأن العقلاء من الناس ، نسوا الخلافات وتجمعوا بقضهم وقضيضهم ، أو كما قال ابن كثير في البداية والنهاية[1] : بحدهم وحديدهم ،

---

(١) انظر : البداية والنهاية (ج١٢/ ٣٢٠) .

وفي مقدمتهم الصليب الكبير ، صليب الصّلبوت ، كما يسمونه ، يحمله منهم عباد الطاغوت ، وضلال الناسوت ، كما يقول ابن كثير ، اجتمعوا كلهم . أمير طرابلس ، وأمراء البلدان الأخرى ، وكان أشدهم على المسلمين أمير الكرت ـ حتى إن أمير طرابلس هذا قال له : إن المسلمين أشداء . فقال له : لا أشك أنك تحب المسلمين ، وتخوفنا من كثرتهم ، وسترى عند النزال من تكون له العاقبة ـ هذا رجل فاجر .

شدة في موضعها :

وحينما كانت المعركة فرّ أمير طرابلس ، ووقع أمير الكرت أسيراً في يد صلاح الدين ، وكان صلاح الدين رجلاً سَمحاً ، كريم الخلق ، كان يعامل الناس معاملة حسنة ، فأجلس هؤلاء الملوك والأمراء بعضهم عن يمينه وبعضهم عن يساره ، كبيرهم أقعده عن يمينه ، وأعطاه كأسا من اللبن فشرب منه ، ثم أعطاه لهذا الرجل أمير الكرت ، فغضب صلاح الدين ، وقال له : إنما أعطيتك لتشرب ، ولم آذن أن تعطيه هذا ، ثم دخل خيمة أخرى ، ودعا بهذا الرجل كان يسمى : رياض ، وعرض عليه الإسلام ليعفيه من القتل فأبى . فقال له : إذن ليس لك عندي إلا القتل انتصاراً لرسول الله ﷺ ، فقد كان كثير السب لرسول الله ﷺ ، وقتله ، وأرسل برأسه إلى الملوك في الخيمة الكبرى ، ليروا عاقبة هذا الإنسان الفاجر ، الذي لا خُلق له ولا دين له .

حطين يوم من أيام الله :

كانت معركة حطين من معارك التاريخ الحاسمة ، انتصر فيها المسلمون انتصاراً هائلاً ، في ذلك اليوم كان صلاح الدين بين قادته وجنوده ، يرغبهم في الجهاد في سبيل الله ، ويُكبِّر فيكبرون وراءه .

يطلب العلم بين الصفين!

وفي أثناء المعركة أمر أحد العلماء أن يقرأ عليه بعض أحاديث صحيح البخاري ، وقال : أنا أول من قرأ الحديث بين الصفين ، أراد أن يطلب العلم

وهو بين الصفين ، وأن يقرأ أحاديث رسول الله ﷺ في هذا المقام ، وبعد الانتصار خطب خطبة عظيمة ، قال فيها : أيها الناس هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه البغي ولا الفخر ، اسجدوا لله شاكرين ، وأمرهم أن يلتزموا التقوى ، وأن يتحروا أمر الله تعالى فيمتثلوه ، ونهي الله تعالى فيجتنبوه[1] .

وكان هذا يوماً من أيام الله حقا ، حتى إن بعضهم رأى بعض الفلاحين يأسر نيفاً وثلاثين أسيراً ، وربطهم في حبل خيمة ، بعض الفلاحين المصريين الذين كانوا في الجيش لم يجد شيئاً ليربط به الأسرى ، فربطهم في حبل خيمة ، كذا وثلاثين أسيراً ، وسيرهم كالأغنام حوله ، وفدى بعضهم بنعله ، لم يكن معه نعل يلبسه ، فأخذ منه نعله فداء وتركه ، يعني كأنّ الواحد لا يساوي نعلاً .

هكذا كان هذا اليوم يوماً من أيام الله .

معركة فتح بيت المقدس :

بعد ذلك ظل صلاح الدين يفتح البلاد بعد البلاد ، يفتح المُدن المختلفة ، بيروت وصيدا ، وعكا ، وعسقلان ، وغزة ، ونابلس . . .

كل هذه البلاد صار يفتحها بلداً بلداً ، ومن كان فيها من أسرى المسلمين أطلقهم وأكرمهم . . . وهكذا ، إلى أن تهيأ صلاح الدين للمعركة الثانية بعد معركة حطين ، هذه المعركة هي : معركة فتح بيت المقدس ، فتح القدس ، وإنقاذ المسجد الأقصى ، لقد عاث الصليبيون فيها فساداً خلال هذه السنين .

حينما فتح صلاح الدين عكا ، أقام فيها صلاة الجمعة ، وقد حُرِّمت فيها صلاة الجمعة أكثر من تسعين عاماً ، لم تصل فيها جمعة ، وهنا أراد أن يفتح بيت المقدس ، وعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها بنية هذا السلطان العادل ، أنه يريد أن يفتح بيت المقدس ، وأن يحرره من أيدي الصليبيين ،

---

(١) راجع هذا كله في أحداث سنة ٥٨٣هـ في البداية والنهاية (١٢/ ٣٢٠) وما بعدها.

OBEIKAN.COM

فجاءه العلماء والصلحاء والزهاد والأتقياء من كل مكان ، يريدون أن ينالوا شرف المشاركة في هذا الجهاد العظيم . . القدس . . معركة القدس ، وبخاصة أنها معركة يهواها كل مسلم ، كل مسلم يود أن يكون ممن يحرر القدس ؛ يوم يفتح الباب للجهاد . حينما علم الناس بنية صلاح الدين ؛ أنه بعد حطين لا بد أن يفتح القدس ، جاءه الناس من كل مكان ، كبار الناس من العلماء والصلحاء من بلاد الإسلام ، جاءوا لينضموا إلى جيشه .

وفعلاً حاصر القدس ، وكان فيها أكثر من ستين ألفاً من المقاتلين الأشداء المدربين ، وقد حصنوها تحصيناً بليغاً ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى قوّى قلب صلاح الدين ، وحاصر هذه المدينة ، واستطاع أن يَنقض جزءاً من سورها ، وأن يهدد من كان في داخلها ، وجاءه قادة هؤلاء الصليبيين يستعطفونه ، ويطلبون منه الصفح والعفو ، هؤلاء الذين دخلوا هذه المدينة ، فقتلوا سبعين ألفاً من أهلها ، أو أكثر من ذلك ، وسالت الدماء أنهاراً ، وغاص الناس في الدماء إلى الرُكب ؛ حين دخل الصليبيون القدس الشريف ، منذ اثنين وتسعين عاماً هجرية .

ولكن هؤلاء اليوم جاءوا يطلبون العفو والصفح ، ورفض صلاح الدين في أول الأمر ، ثم نظر في العاقبة ، ووجد أن في هذا العفو خيراً ، وعفا عن هؤلاء ، على أن يتركوا المدينة ، ويذهبوا إلى مكان آخر ؛ في صور ، في لبنان ، وكل واحد منهم يدفع ٢٥ ديناراً للرجل ، وخمسة دنانير للمرأة ، ودينارين لكل صغير وصغيرة ، فدية بسيطة معظمها أخذوها من مال المسلمين حينما احتلوا هذه الديار .

ونصر الله عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب الكافرة المُغِيرة وحده ، ودخل المسلمون بيت المقدس بعد اثنتين وتسعين سنة ، ظل في أيدي الصليبيين ، دخلوه في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هجرية ، دخلوا وكان يوم

جمعة ، ولكنهم لم يصلوا الجمعة في ذلك اليوم ؛ لأنهم كانوا مشغولين ، ولم يسعفهم الوقت ليعدوا المسجد ، فالمسجد مليء بالصلبان والقذارة والخنازير ، ولذلك لم يصلوا إلا في الجمعة التالية ، أخذ المسلمون المسجد الأقصى ، وأصبح في أيديهم ، وفي الجمعة التالية كانت خطبة عظيمة ، خطبة التحرير ، خطبة الصلاة بعد الحرمان هذه المدة الطويلة[1].

المعركة لم تنته بحطين وبفتح بيت المقدس :

وهكذا أيها الإخوة ... لا بد للحق أن ينتصر ولا بد للباطل أن ينكسر ﴿ **وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ (الإسراء: ٨١).

ولكن أحب أن أقول لكم : إن المعركة لم تنته بحطين ، ولم تنته بفتح بيت المقدس ، فسرعان ما انتفض الصليبيون على صلاح الدين ، وعادوا إلى عكا بعد أن حُرِّرت منهم ، جاءوا من البر والبحر ألوفا ، جاء ملك ألمانيا ، وكان معه مائة وخمسون ألفا ، معظمهم ماتوا في الطريق ، ولم يصل إلا بخمسة آلاف ، ثم جاء ملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد ، جاءوا لم يستسلموا ، وظل القتال بقية عمر صلاح الدين ومع أولاده ، ثم بعد ذلك مع المماليك ، أيام الظاهر بيبرس البندقداري ، المملوك الذي حكم مصر والشام ، بل ظل ذلك بعده أيضاً أيام القلاوونيين .

نصر الله للمؤمنين وبالمؤمنين[2] :

ولم يكن الجهاد ضد الصليبيين في الشام وحدها ، فقد وقعت معارك في مصر معهم ، منها معركة ؛ (المنصورة) الشهيرة التي أسر فيها الملك لويس التاسع ؛ الذي كان يُسمى القديس لويس ، ووضع في (دار ابن لقمان) . هؤلاء

---

(١) وكان الخطيب هو : القاضي محيي الدين بن الزكي ، كما ذكر ابن كثير (١٢/٣٢٥).

(٢) لفضيلة الشيخ كلام طيب عن (سنن الله في النصر) ذكره في عدد من كتبه ، أهمها : (جيل النصر المنشود) فليراجع كلامه هناك .

الصليبيون المتعصبون جاءوا في حملات متتالية ، ثمان حملات ، أو تسع حملات ، بعضها وراء بعض ، يحاولون أن يحتلوا هذه البلاد ، وقد احتلوها وأقاموا فيها ممالك وإمارات بالفعل ، ولكن الله هيّأ لهم الرجال الذين استطاعوا أن ينتزعوها من أيديهم ، وهذا هو وعد الله حينما قال : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(الروم:٤٧)، النصر للمؤمنين ، والنصر بالمؤمنين ، كما قال عز وجل ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٦٢،٦٣)، إنما يتم النصر بالمؤمنين المؤتلفة قلوبهم ، أما المؤمنون المختلفون ، الذين يُشرّق أحدهم ويُغرّب الآخر ، ويقاوم أحدهم ويستسلم الآخر ؛ فهؤلاء لا ينتصرون ، إنما النصر للمؤمنين المترابطين المؤتلفين ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، نسأل الله عز وجل أن يفتح لنا فتحاً مبيناً ، وأن يهدينا صراطاً مستقيماً ، وأن ينصرنا نصراً عزيزاً .

اللهم آمين ، ادعوا الله تعالى يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

تدخلات أضاعت الثمرة والآمال :

في تاريخ الجهاد الفلسطيني محطات كثيرة ؛ كان يمكن للإخوة الفلسطينيين أن ينتصروا فيها ، وأن يجهضوا المشروع الصهيوني ، ولكن للأسف حدثت تدخلات مختلفة أضاعت الثمرة والآمال .

المحطة الأولى : إضراب ١٩٣٦م :

في سنة ١٩٣٦ أعلن الفلسطينيون إضراباً عاماً ، أشبه بحركة عصيان مدني ، شمل كل المدن والقرى ، أُغلقت المحلات والمتاجر ، وكل شيء وظلّ هذا شهوراً عِدّة ، واحتار الإنجليز الذين كانوا يحكمون فلسطين في ذلك الوقت منتدبين من عصبة الأمم ، ليحققوا وعدهم الذي وعد به وزير خارجيتهم المعروف ؛ بلفور الذي وعد اليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين ، احتار الإنجليز ماذا يفعلون أمام هذا الإجماع ، الذي قلّ أن يوجد له نظير . فاستعانوا على إخماد هذه الوقفة التاريخية بالقادة العرب ، وكان الإنجليز يحكمون كثيراً من البلاد العربية ، استعانوا بالزعماء العرب ليتوسطوا لدى الإخوة الفلسطينيين ليفكوا هذا الإضراب ، واستطاع الزعماء العرب أن يؤثروا على الفلسطينيين ، وأن ينزلوا عند رغبتهم ورأيهم ، وأن يفكوا هذا الإضراب ، وهذا كان في صالح الحركة الصهيونية من غير شك ، تنفست الصعداء ، واستطاع الإنجليز أن يمدوا لها في حبالها ، ويُهيئوا لها السلاح والعتاد ، حتى أصبح لها شأن بعد ذلك . والتي عرفت بعد ذلك بالعصابات الإرهابية المعروفة ، هذه محطة .

المحطة الثانية : دخول الجيوش العربية :

ومحطة أخرى كاد المشروع الصهيوني فيها أن يُجهض ، عندما دخلت الجيوش العربية السبعة في سنة ١٩٤٨م ، حينما جلا الإنجليز ، وانتهت مدة انتدابهم ، وهي ثلاثون عاماً ، دخلت الجيوش العربية معركة أخرى ، وعلى رغم ما كان في هذه الجيوش من خلل ومن عيوب ، وبعضها كان يقودها إنجليز ، من أمثال جلوب باشا وغيره ، ولكن كان في هذه الجيوش وطنيون ومسلمون ، ورجال متحمسون ، واستطاعوا أن ينزلوا ضربات موجعة بالحركة الصهيونية ، وبجماعاتها المسلحة ، وهنا بعد أن كاد المشروع الصهيوني أن يُجهض ، استعانوا أيضاً بالقادة العرب ، وكانت الهُدنة التاريخية المعروفة باسم :

هُدنة رودس ، فُرض على الجيوش وعلى المتطوعين أن يلقوا السلاح ، بل أُخذ المتطوعون من ميدان القتال إلى ميدان الاعتقال ، ذهبوا وراء الأسلاك ، ووراء القضبان ، معتقلين في جبل الطور ، نفذ ذلك النقراشي باشا في مصر ، وعدد من رؤساء الحكومات العرب في ذلك الوقت .

المحطة الثالثة : انتفاضة الحجارة :

ومن قريب ؛ منذ سنوات قامت انتفاضة مباركة هائلة زلزلت الكيان الصهيوني ، انتفاضة أطفال الحجارة ، أو ثورة المساجد ، التي انطلقت من غزة انطلاقاً تلقائياً ، لم يكن فيها تخطيط لأحد ، ولكن حدث حادث حرّك الناس كما في الانتفاضة الأخيرة ، واستمرت سنوات وسنوات ، وكان لها صداها ، وانتقلت من الحجارة إلى الرصاص ، وإلى العمليات الاستشهادية داخل القدس الغربية ، وداخل تل أبيب ، وزلزلت الأرض تحت أقدام إسرائيل ، ولكن سرعان ما عقدت المؤتمرات لحماية إسرائيل ومحاربة الإرهاب ! والإرهاب عندهم هو : أن تدافع عن أرضك ، وعن عرضك ، وعن أهلك ، وعن حرماتك . هذا إرهاب يجب أن تعقد له المؤتمرات .

وأوقفت الانتفاضة ، وأوقفت هذه الحركات .

المحطة الرابعة : انتفاضة الأقصى :

وحينما حدث ما حدث من تدنيس المسجد الأقصى ، انطلقت الانتفاضة الجديدة ، انتفاضة تلقائية ، لم يُخطط لها أحد ، ولم يحركها أحد ، تحركٌ تلقائي من أبناء فلسطين ، غِيرة على المسجد الأقصى ، وضِيقاً بهذه المحادثات والمفاوضات التي طال طريقها ، ولم يَجِن الناس من ورائها ثمرة ، ولم يحصلوا على شيء إلا على السراب الذي ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ (النور:٣٩) ، انطلقت هذه الانتفاضة التي قدمت المئات من الشهداء ، والآلاف من الجرحى ، الجرحى الذين معظمهم معوقون ؛ يعيشون

بعاهات في أجسامهم طوال حياتهم ، الآن يراد مرة أخرى إطفاء هذه الانتفاضة ، إطفاء هذه الشعلة ، والعودة من جديد إلى دائرة المفاوضات ، تلك المفاوضات التي هي (محلك سر) حلقة مفرغة ، لا يدرى أين طرفاها ، عدنا إلى ما كنا فيه ، أوسلو ، وواي ريفر ، وكامب ديفد الثانية ، وشرم الشيخ .. و .. و .. ، عدنا إلى ما كنا .

أخشى ما أخشاه :

يا أيها الإخوة : إن أخشى ما أخشاه إذا أوقفت هذه الانتفاضة ، واحتاج ياسر عرفات وإخوانه إلى انتفاضة جديدة ألا يجدوها ، فقد يئس الناس من هذه الانتفاضات التي لا توصل إلى شيء ، إلاَّ ضحايا من غير ثمن ، ضحايا لا مقابل لها . إلى متى نظل هكذا أيها الإخوة؟ إلى متى نظل نسير ونسير ، كالثور في الساقية ، والمكان الذي انتهينا إليه ، هو الذي ابتدأنا منه .

ألا نحدد هدفنا ؟

ألا نعرف عدونا ؟

أما آن لنا أن نعرف هذا العدو الذي جربناه طوال تلك السنين ، فلم نعرف عنه : إلا نكث العهود ، وإخلاف الوعود ، وتعدي الحدود ، وانتهاك الحرمات ، والاستهانة بالمقدسات؟

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجمع كلمة أمتنا على الهدى ، اللهم اجمع كلمة أمتنا على الهدى ، وقلوبها على التقى ، ونفوسها على المحبة ، ونيّاتها على الجهاد في سبيلك ، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل .

* * *

OBEIKAN.COM